وعد بلفور

والعوامل التى ساعدت على اصداره

للدكتور محمد محمود السروجى

أرتبط وعد بلفور ارتباطاً وثيقاً بالمشكلة اليهودية وبالحركة الصهيونية فى القرن التاسع عشر ، ووعد بلفور أحد اتفاقات دولية ثلاث أملتها ظروف الحرب العالمية الأولى لخدمة الأغراض العسكرية ولتحقيق أطماع الدول الأوربية الكبرى فى تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية وانهاء المسألة الشرقية التى شغلت أذهان ساسة أوربا ردحاً طويلا من الزمن .

وصلة اليهود بفلسطين ترجع الى القرون الأربعة أو الخمسة قبل الميلاد حيث استطاعوا فى تلك الفترة من الزمن ايجاد بعض التشكيلات السياسية على ضفاف نهر الاردن . وباستيلاء الرومان على مصر والشام قضوا على تلك التشكيلات السياسية وأخضعوا اليهود لحكمهم المباشر . ثم توالى على حكمهم البيزنطيون والفرس والعرب والأتراك السلاجقة والمماليك والعثمانيون .

ولن أتعرض بطبيعة الحال لتطور تلك المشكلة خلال العصور . وانما سأقتصر على بحثها فى ظل الحكم العثمانى لفلسطين . أى منذ أن نزل الاتراك بأرضها فاتحين فى عام ١٥١٦ .

واذا نظرنا الى الحكم العثمانى للولايات العربية بصفة عامة نجد أنه لم يكن فى صالح المحكومين بأى حال من الأحوال . فلا غرابة اذا ما ساءت حالة فلسطين بمن فيها من عرب ويهود تحت الحكم التركى .

وقد حاول نابليون خلال حملته على مصر والشام أن يغرى اليهود ، وخصوصاً يهود آسيا وافريقيا على مساعدته فى عملياته الحربية بتلك المنطقة ،

ووعدهم بارجاع حقوقهم المفقودة فى أرض فلسطين اذا ما انضموا تحت لوائه . ولكن هذه المحاولة ذهبت ادراج الرياح لعدم استطاعة نابليون الصمود أمام حصون عكا ، وخروج الحملة الفرنسية من مصر بعد فترة وجيزة .

ومن النتائج الهامة التى ترتبت على حملة نابليون على الشام — رغم فشلها فى تهديد المصالح البريطانية فى الهند — اثارة انتباه انجلترا الى هذه المنطقة . وهذا ما دفعها الى الوقوف ضد محمد على عندما اجتاحت جنوده الشام . ومما يدل على زيادة اهتمام انجلترا بفلسطين منذ ذلك الوقت حرصها الشديد على اخضاع الأراضى حول ضفتى القناة لسلطانها ، وهذا مادعا اللورد كرومر فى سنة ١٨٩٢ الى الاصرار على أن ينص فرمان تعيين الخديوى عباس الثانى على تحديد الحدود الشرقية لمصر بالخط المار من العريش شمالا الى خليج العقبة على البحر الأحمر ، أى ادخال كل شبه جزيرة سيناء ضمن حدود مصر . بينما يصر السلطان العثمانى على أن يمتد خط الحدود الشرقى لمصر من العريش الى السويس فقط .

وفى سنة ١٩٠٦ حاول الأتراك اعادة احتلال الجزء الشرقى من شبه جزيرة سيناء، ولكن انجلترا هددت باستخدام القوة بحيث اضطرت تركيا الى قبول قرار اللجنة التى شكلت لتحديد الحدود الشرقية لمصر والذى ينص على جعل الخط الممتد من خليج رفح شمالا الى خليج العقبة جنوبا حدا فاصلا بين مصر فى الغرب وممتلكات الدولة العثمانية فى الشام(١) .

وظلت فلسطين خاضعة للحكم التركى الى عام ١٨٣٢ حيث خضع الشام كله لسيطرة محمد على . ولم يغير دخول فلسطين فى حوزة محمد على من الأمر شيئا، فظلت حالة الأهالى سيئة نظرا لفداحة الضرائب المفروضة عليهم ، ولاتباع محمد على سياسة الاحتكارات التى طبقت فى مصر .

(١) Bentwich N.; Palestine P. 53.

ولم يطل بقاء الشام فى قبضة محمد على فسرعان ما أعيد مرة ثانية الى حظيرة الدولة العثمانية بعد هزيمة القوات المصرية فى سنة ١٨٤٠ . وفى ذلك الوقت تمتع اليهود بحماية بعض القنصليات الأوروبية ،وخصوصا القنصلية الانجليزية التى انشئت فى ذلك الوقت بفلسطين . ورغم ما تمتع به اليهود من حرية واسعة ، فان هذه الحرية لم تحل بينهم وبين التفكير فى اعادة ما يسمونه بمجد اسرائيل القديم ، وارجاع سيطرة اليهود على فلسطين دون مراعاة للظروف التاريخية التى مرت بتلك المنطقة ،وبسكانها الأصليين الذين امتزجوا بشعوب أخرى ، وتكون من هذا الخليط الشعب الفلسطينى العربى الحالى . فهذا الشعب هو وحده صاحب الحق الشرعى فى تلك البلاد . فعلى ارضها يعيش كما عاش آباؤه واجداده من قبل ، فادعاء اسرائيل اذن بأحقيتها فى امتلاك تلك الأراضى استنادا على الأوضاع التاريخية القديمة التى لم تعمر سوى فترات قصيرة من الزمن — اذا ما قيست بفترة الحكم العربى التى لا تقل عن ثلاثة عشر قرنا من الزمان — ادعاء مردود .

وقد ارتبطت حركة المناداة بجعل فلسطين وطنا قوميا لليهود بالحركة الصهيونية ارتباطا كبيرا . ظهرت هذه الحركة بشكل واضح فى أواخر القرن التاسع فى أعقاب حركات الاضطهاد والمذابح التى تعرض لها اليهود فى دول شرق أوربا ، وعلى وجه الخصوص فى روسيا وبولندة . ونشأة هذا الاضطهاد لا ترجع الى أسباب دينية ، وانما تنبع من أسباب اقتصادية وعنصرية تبلورت فيما اطلقت عليه أوربا اسم الحركة اللاسامية Anti Semitism Movement، ولم تفصح الصهيونية عن نواياها الحقيقية ووسائلها فى بادىء الأمر ، بل أخذت تصبر العنصرية الدينية مع العنصرية السياسية طوال القرن التاسع عشر حتى تبلورت فى النهاية عقيدتها السياسية »(١) ، تلك العقيدة التى انحصرت فى جمع شمل اليهود والعمل على أحياء لغتهم وتاريخهم توطئة لانشاء الدولة اليهودية الحديثة . وتحقيقا لهذا العمل أخذ الصهيونيون يدعون بأن اليهود أمة واحدة مستمرة منذ آلاف السنين . ولا ينقص هذه الأمة سوى أرض الوطن .

---

(١) دكتور أحمد عبد القادر الجمال : من مشكلات الشرق الأوسط ص ١٢١

ويجب ألا يغرب عن ذهننا أن الحركة الصهيونية قد لقيت اهتماما من قبل الصهيونيين في شرق أوربا وفي غربها على السواء . وهي ليست حركة سياسية فحسب . بل كانت حركة اقتصادية وسياسية تدر عليهم الربح الوفير ، الأولون يصدرون العمال اليهود من شرق أوربا يترغيبهم بكل الوسائل في الهجرة الى فلسطين . والآخرون يصدرون رأس المال الى فلسطين » (١)

ولم يطالب اليهود الصهيونيون في بادىء الأمر بجعل فلسطين بالذات وطنا قوميا لليهود بل كان هدفهم الحصول على بقعة من الأرض تكون ملجأ لليهود المضطهدين ، فدخلوا في مفاوضات مع الدولة العثمانية لمنحهم قطعة من أرض سوريا أو فلسطين ، ولكنها فشلت لخوف الدولة العثمانية من تغلغل النفوذ اليهودي في تلك المنطقة . فيمموا وجوههم شطر الدول الكبرى وخاصة انجلترا وتقدموا اليها بمشروعين : أحدهما يطالب باتخاذ أوغندة وطنا لليهود ، والمشروع الآخر ينصب على شبه جزيرة سيناء . ولكن باء المشروعان بالفشل ولم يكن حظهما أحسن من حظ سابقهما .

ويعلق الدكتور حاييم وايزمن على هذين المشروعين فيندد بالمشروع الأول ويبين بأنه لا يتفق مع أهداف الصهيونية في التوسع والاستعمار ، ولكنه يؤيد المشروع الثاني ويحمل على الذين رفضوه ، ويوضح بأن شبه جزيرة سيناء مكان مناسب لترطيد أقدام الصهيونية فيه ، نظرا لاتصاله جغرافيا بفلسطين ويمكن اتخاذه نقطة ارتكاز للنشاط الصهيوني في المناطق المجاورة له (٢) . ويذكر المستر Hoskins في كتابه The Middle East بأن الاستعمار الصهيوني قد بدأ في ظل الحكم التركي في صوره مصغرة (٣) .

المؤتمر الصهيوني الأول

ويعتبر الكاتب النمسوي تيودور هرتزل Theodor Herzl أول من صاغ الأماني القومية لليهود في شكل قضية قومية مدروسة في كتابه (الدولة اليهودية) Judenstaat ، وكان لنشر هذا الكتاب أكبر الأثر في التمهيد لعقد

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٧

(٢) 1. Weisman Dr; Trial & Error P. 228.

(٣) 2. Hoskins H. L; The Middle East P. 43.

أول مؤتمر صهيونى لليهود فى القرن التاسع عشر . واجتمع هذا المؤتمر بمدينة بال بسويسرا فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٩٧ لمناقشة المسألة اليهودية . وفيه طالبت الوفود الصهيونية الآتية من دول شرق أوربا بجعل فلسطين وطنا قوميا لهم ، أحياءا لمجد اسرائيل فى أرض الميعاد، وتخليدا لمملكة داوود وسليمان . وقد ركز الصهيونيون اهتمامهم بفلسطين بعد أن فشلت جميع محاولاتهم مع انجلترا .

وفى هذا المؤتمر أيضا وضع الاعضاء شعار العلم اليهودى ، والنشيد القومى اليهودى ، وتأسست الهيئات الصهيونية العالمية التى ستتفرع عنها الوكالة اليهودية الأهلية .

وقد حاول هرتزل ، أن يحصل على ترخيص من السلطان من شأنه فتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود ومنحهم مركزا خاصا بها ، ولكنه فشل فى محاولته تلك وبدا أن ليس هناك أى نتيجة عملية متوقعة فى وقت قريب ، ولذلك ترك الآخرين السير وراء هذا الخيال البعيد عن التحقيق على ما يبدو(١).

وعندما ولى رجال تركيا الفتاة الحكم كانوا يميلون الى الاستجابة لمطالب الصهيونيين نظرا لما تتمتع به العناصر اليهودية داخل جمعية الاتحاد والترقى من نفوذ ، ولكنهم سرعان ما تبينوا أن الحكمة تقضى برد تلك المطالب نظرا للضجة التى أثارها النواب العرب فى البرلمان التركى فى ربيع سنة ١٩١٢ ضد امتلاك اليهود لمساحات كبيرة من الأراضى الزراعية بفلسطين ، وما فى ذلك من خطر جسيم على مستقبل الفلاحين العرب (٢) .

ورغم أن فكرة انشاء وطن لليهود فى فلسطين كانت لا تخرج — وقتئذ — عن مجرد خيال يراود عقول غلاة الصهيونيين ، وفكرة تستند على العاطفة أكثر مما تستند على الواقع ، الا انها وجدت رجالا أشداء يؤمنون بها ويعملون

---

(١) Samuel H.; Memoir P. 89.

(٢) Antonius G.; The Arab Awakening P. 259

على التمهيد لها فى أذهان الرأى العام العالمى ، تاركين مهمة التنفيذ الى الظروف الملائمة ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، الثرى اليهودى الكبير اللورد روتشلد والدكتور حايم وايزمن ، وهو بولونى الأصل وتجنس بالجنسية الانجليزية وأصبح استاذا للكيمياء فى جامعة مانشستر ، والدكتور نعوم سوكولوف السياسى الكبير ، ونخبة ممتازة من كبار الكتاب والصحفيين ورجال السياسة .

وقد أصاب الحركة الصهيونية شىء من الجمود بعد فشل المحاولات السابقة وخصوصا بعد موت هرتزل فى ١٩٠٤ ، ولكن سرعان ما وجدت الحركة بديلا له فى شخصية الدكتور وايزمن . غير أن هذه الشخصيات اليهودية الكبيرة ما كانت تستطيع النجاح فى مهمتها لولا عطف وارشاد بعض الساسة الانجليز . وفى هذا المعنى يقول الدكتور حايم وايزمن « ولولا المشورة التى كان يقدمها لنا رجال أمثال سايكس ولورد روبرت سيسل فى وقت لم تكن لنا خبرة فى المفاوضات الدبلوماسية الدقيقة لارتكبنا دون شك أخطاء جسيمة وكثيرة » (١).

الحرب العالمية الاولى ومساومات الصهيونية

كانت الحرب العالمية فرصة نادرة أمام الصهيونية العالمية للتعبير عن نشاطها فى مساومة المحاربين للوصول الى أفضل الشروط التى تحقق لها مطامعها فى فلسطين . وفى نفس الوقت أثبت الحرب الحركة القومية العربية ، فقد وجد فيها العرب فرصتهم للخلاص من استبداد الترك . وخصوصا بعد أن استتب الأمر لحكومة الاتحاديين التى سارت على سياسة أكثر تعسفا وعصبية مما كانت عليه سياسة السلطان عبد الحميد . وكان العرب عازمين على الحصول على استقلالهم بأى ثمن من الأثمان وبأية وسيلة من الوسائل . وقد وجدوا أن مصالحهم تتفق مع مصالح انجلترا فى القضاء على الدولة العثمانية ، وان اختلف الهدف الذى يسعى كل من الطرفين الى تحقيقه .

---

(١) Weizman Dr.: Trial & Error P. 230.

ولكن العرب لم يكونوا على استعداد للدخول فى مفاوضات مع انجلترا دون قيد أو شرط ، بل لقد اتحدت كلمة زعمائهم على ضرورة الحصول على « اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية (١) :

شمالا : خط مرسين — أضنة حتى درجة ٣٧ شمالا : ومنها على امتداد خط بريجيك — أورفه — ماردين — مديات — جزيرة ابن عمر — عماديه حتى حدود فارس .

شرقا : الحدود الفارسية حتى خليج فارس

جنوبا : المحيط الهندى (خلا عدن التى تحافظ على وضعها الحالى)

غربا : البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط حتى مرسين .

— الغاء الامتيازات الأجنبية .

— عقد تحالف دفاعى بين بريطانيا العظمى والدولة العربية المستقلة العتيدة .

— منح بريطانيا الأفضلية فى الشئون الاقتصادية .

هذه هى الشروط التى قدمها الزعماء الى الشريف حسين حاكم مكة ليتولى عرضها على الجانب البريطانى نيابة عنهم ، فان قبلتها بريطانيا فسيكون العرب على استعداد لتأييد الثورة العربية التى سيعلنها شريف مكة ضد الأتراك العثمانيين .

وقد ماطلت انجلترا فى أول الأمر فى اعطاء موافقة صريحة على المطالب العربية وظلت المفاوضات مستمرة بين الطرفين فترة غير قصيرة ، وهى التى اطلق عليها اسم مفاوضات الحسين — مكماهون . ولم تحاول انجلترا الاستجابة الى المطالب العربية الا عندما تحرج موقفها الحربى فى منطقة الشرق

---

1. Antonius G.; The Arab Awakening P. 157 (١)

الأدنى وشعرت بحاجتها الملحة الى مساعدة العرب، فأرسل مندوبها السامى بمصر السير هنرى مكماهون الى الحسين مذكرة بتاريخ ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١٥ بالموافقة على المطالب العربية مع بعض التحفظات جاء بها : (١)

« أن ولايتى مرسين واسكندرونة واجزاء من بلاد الشام الواقعة فى الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماه وحلب لا يمكن أن يقال انها عربية محضة وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة .

ومع هذا التعديل وبدون تعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين رؤساء العرب نحن نقبل تلك الحدود .

وأما من خصوص الأقاليم التى تضمها تلك الحدود حيث بريطانيا العظمى مطلقة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا فإنى مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم المواثيق الآتية وأجيب على كتابكم بما يأتى :

أنه مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه فبريطانيا العظمى مستعدة أن تعترف باستقلال العرب وتؤيد ذلك الاستقلال فى جميع الأقاليم الداخلة فى الحدود التى يطلبها دولة شريف مكة . »

وقد اعترض (٢) الشريف حسين على اخراج ولايتى حلب وبيروت وسواحلهما من حدود الدولة المقترحة باعتبار كونهما ولايتين عربيتين . ولكنه لم يعارض استبعاد ولايتى مارسين واضنة .

وحاول السير هنرى مكماهون (٣) فى رده على الحسين أن يتجنب الدخول فى مناقشات حول ولايتى حلب وبيروت ، وارجاء البت فى مصيرهما لحين الوصول مع فرنسا الى اتفاق بشأنهما . وفى ختام المذكرة أضاف

---

(١) الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين الوثيقة رقم ٤ ص ١٣

(٢) الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين الوثيقة رقم ٥ ص ١٧

(٣) المصدر السابق وثيقة رقم ٦ ص ١٩

قائلا « وفى هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا العظمى قد فوضت لى أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوى على ابرام أى صلح كان الا اذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الألمان والأتراك » .

واذا ما نظرنا الى تلك المراسلات التى تبودلت بين الطرفين العربى والانجليزى نجد أن تعمد انجلترا عدم قبول اعتراض الحسين على التحفظات التى أثارتها بشأن ولايتى دمشق وبيروت ومواحلهما وكذلك ولاية العراق واصرارها على تحقيق مصالحها ومصالح حليفتها فرنسا فى هذه المنطقة العربية، واضح وظاهر .

ولكن مهما يكن من شىء فان منطقة فلسطين التى كان يطلق عليها فى ذلك الوقت سنجق القدس لم تثر بشأنها أية تحفظات ، أى أنها كانت تدخل فى نطاق الدولة العربية التى وافقت انجلترا على الاعتراف بها .

واذا ما تركنا الجانب العربى وانتقلنا الى الجانب اليهودى ، نجد أن هؤلاء قد انتهزوا فرصة قيام الحرب العالمية الأولى ، وأخذوا فى مساومة الطرفين المحاربين نظرا لأن الحرب فى بدايتها لم تكن واضحة الاتجاه ، وكان من الصعب ترجيح كفة فريق على آخر . ولهذا فقد آثر ممثلو الصهيونية الدخول فى مفاوضات مع المعسكرين المحاربين فى وقت واحد . وذلك لضمان الحصول على مطالبهم بشأن فلسطين أيا كانت نتيجة الحرب . ولما كان كلا المعسكرين يحرص كل الحرص على كسب التأييد المادى والأدبى للصهيونية العالمية ، ازاء قضيته ، فقد لجأت المانيا وحليفتها النمسا الى الضغط على الدولة العثمانية (الخليفة الثالثة) لمنح الصهيونيين وعدا يسمح لهم بانشاء شركة كبيرة تتمتع بامتيازات واسعة ، تكون مهمتها تيسير الهجرة اليهودية الى فلسطين .

ويذكر المؤرخ الكبير ارنولد توينبى فى كتابه (دراسة (١) فى التاريخ) « أن كسب التأييد اليهودى — بل وأكثر من ذلك تجنب العداوة اليهودية — كان أمرا على جانب عظيم من الأهمية للفريقين ، ومع أن تحرر اليهود

النفسى فى منفاهم فى الغرب لم يكن قد تم بعد ، فأن تحررهم الاقتصادى والسياسى فى ذلك الوقت كان قد قطع شوطا بعيدا فى تقدير أصوات اليهود ومنحها وزنا هاما ، بل وربما وزنا حاسما فى ميزان القوى الدولية المضطربة . لقد أصبح اليهود الآن قوة يحسب حسابها فى الحياة السياسية القومية لدى دول وسط أوربا وغربيها على السواء . وفى الولايات المتحدة كانت قوتهم لا تزال على مدى أوسع كثيرا ...

ويقول المستر هربرت صمويل (أول مندوب سام لانجلترا فى فلسطين فى ظل الانتداب) « ولو أن المانيا امتلكت فلسطين قبل اندلاع نيران هذه الحرب لاستطاعت أن تشن على مصر هجوما مريعا » (١) .

وبينما كانت الدولة العثمانية على وشك اصدار هذا الوعد للصهيونيين بصفة رسمية ، بدأت جيوش انجلترا تحت قيادة الجنرال اللنبى تجتاح أرض فلسطين وتستولى عليها . فقضت بذلك على أمل الألمان وحلفائهم فى ضم الصهيونية العالمية الى جانبهم . كما أيقن الصهيونيون بألا فائدة ترجى من وراء اتفاقهم مع الاتراك بعد أن خرجت فلسطين من أيديهم . ولذا فقد تحولوا وجوههم شطر انجلترا وحلفائها من الأمريكيين والفرنسيين ، علهم يستطيعون أن يحققوا أحلامهم فى انشاء وطن لهم بفلسطين .

عطف انجلترا على الصهيونيين ودوافعه

حاول الصهيونيون أن يكسبوا عطف انجلترا على قضيتهم ، وذلك عن طريق الالتقاء مع اهداف السياسة الانجليزية فى منطقة الشرق الأدنى . ولم يخف عليهم مدى أهمية مصر بالنسبة لانجلترا كطريق امبراطورى هام الى ممتلكاتها فى الهند وجنوب شرق آسيا ، وكقاعدة حربية هامة لعملياتها العسكرية فى الشرق العربى . كما أن انجلترا كانت تفكر فى ايجاد حل لمسألة المصرية بعد انتهاء الحرب يتفق مع مصالحها . ولم يكن اعلان الحماية عليها

---

(١) Toynbee A., A study of history vol. VIII P. 302.

الا حلا مؤقتا اقتضته الظروف الحربية وأملته حاجة انجلترا الى تأمين سلامة قواتها العسكرية فى مصر ، فانجلترا كان يهمها الاحتفاظ بمصر ، وبألا تؤدى نتيجة الحرب الى خلق دولة قوية على حدودها من ناحية الشرق .

فهذا الفهم الصحيح لاتجاهات السياسة الانجليزية سهل مهمة زعماء الحركة الصهيونية وشجعهم على القيام باتصالات سياسية مع الوزير الانجليزى السير ادوارد جراى فى أواخر عام ١٩١٤ . وفى تلك المقابلات أخذ الصهيونيون يوضحون للوزير الانجليزى مدى أهمية اقامة الدولة اليهودية الجديدة فى فلسطين للمصالح الانجليزية بالمنطقة ، فهى بالاضافة الى ما تحققه من كسب صداقة اليهود فى كل أجزاء العالم وتأييدهم لقضية الحلفاء فى الحرب ، تحقق كسبا آخر على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لانجلترا ، ألا وهو اقامة دولة موالية لانجلترا تجاور الحدود المصرية وعلى مقربة من قناة السويس : ويقول المستر هربرت صموئيل (أول مندوب سام لبريطانيا فى فلسطين) فى حديث له مع السير ادوارد جراى وزير خارجية انجلترا فى ٩ نوفمبر سنة ١٩١٤ ، واعتقدت أن النفوذ الانجليزى يجب أن يقوم بدور هام فى تأسيس مثل هذه الدولة . لأن موقع فلسطين الجغرافى ، وقربها من مصر يجعل صداقتها لانجلترا أمرا له أهميته للامبراطورية البريطانية» (١) .

كذلك نجد أن اللورد كتشنر - أثناء وجوده بمصر - قام بمساع عديدة لدى حكومته يلفت فيها نظرها الى أهمية سوريا الحيوية من خليج عكا وحيفا على البحر الأبيض المتوسط الى خليج العقبة على البحر الأحمر لمصر كخط دفاع لحماية قناة السويس وكطريق برى الى الشرق (٢) .

وستزداد انجلترا اقتناعا بأهمية هذه المنطقة للدفاع عن مصر عندما تمكنت القوات التركية من مهاجمة حدودها الشرقية فى سنة ١٩١٥ ، واجتيازها صحراء سيناء ، وتهديدها قناة السويس تهديدا خطيراً . اذ أيقنت

---

(١) Samuel H.: Memoir. P.

(٢) Antonius G.; The Arab Awakening, P. 246 & 247.

انجلترا فى ذلك الوقت أن النظرية العسكرية القديمة التى كانت تعتبر الصحراء سدا طبيعيا منيعا أمام الغزاة قد تلاشت ، وأنه يجب عليها أن تمد حدود مصر الشرقية بحيث تضم منطقة فلسطين ، أو أن تخضع تلك المنطقة لسيادتها وسلطانها ، لتكون بمأمن من مهاجمة قناة السويس .

كان طبيعياً أن يجد عرض الصهيونيين اقامة دولة حليفة لانجلترا على حدود مصر قبولا لدى السير ادوارد جراى وزير الخارجية وبعض المسئولين الانجليز . فحرص انجلترا على تأمين وجودها فى مصر كان الدافع الأساسى والجوهرى — فى نظرى — لاصدار وعد بلفور والعمل على تنفيذه.

وهناك سبب آخر دعا انجلترا الى الاستجابة الى المطالب الصهيونية ، ألا وهو حاجة انجلترا الى تأييد اليهود المادى والأدبى لكسب الحرب خصوصاً ، للموقف الحرج الذى كان يحيق بدول الحلفاء المشتركة معها فى ذلك الوقت . فالروماليون كانوا قد سحقوا ، ومعنويات الجيش الروسى كانت قد أخذت فى الانحلال ، ولم يكن فى وسع الجيش الفرنسى آنئذ أن يقوم بهجوم واسع المجال ، وكان الابطاليون قد فشلوا فشلا مروعاً فى موقعة كاپوريتو ، كما أن الغواصات الالمانية كانت قد اغرقت ما يبلغ محموله ملايين الاطنان من السفن البريطانية ، ولم يكن قد وصلت الفرق الأمريكية بعد الى الخنادق . وفى تلك الحالة الحرجة ساد الاعتقاد بأن اكتساب عطف اليهود أو مناوأتهم قد يكون له أثره الفعال فى توجيه كفة الميزان نحو قضية الحلفاء أو ضدهم . ثم أن عطف اليهود من شأنه على الأخص أن يضمن معاضدة اليهود فى امريكا ويجعل من الصعب على المانيا تخفيف قواها العسكرية وتحسين وضعها الاقتصادى فى الميدان الشرقى »(١) .

---

(١) من تقرير اللجنة الملكية لفلسطين المطبوع بالعربية فى شهر يولية سنة ١٩٣٧ والصادر بشكل كتاب أبيض رقم ٥٤٧٩ نقلا عن مجموعة الوثائق البريطانية فى قضية فلسطين ص ٨٨

كما ذكر المستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية قوله « ان الزعماء الصهيونيين قطعوا لنا وعداً أكيدا مآله أنه اذا أخذ الحلفاء على عاتقهم تسهيل انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين فانهم سيعملون كل ما في وسعهم لايقاظ عاطفة اليهود في كافة أنحاء العالم وتأليبهم لمعاضدة قضية الحلفاء، وقد برروا بوعدهم هذا » (١) .

لم يطالب الصهيونيون بجعل فلسطين كلها دولة يهودية مستقلة ، وذلك لأن نسبة العناصر اليهودية — في ذلك الوقت — كانت قليلة بشكل ملحوظ اذا ما قورنت بنسبة السكان العرب البالغة ٩٢٪ من عدد سكان فلسطين. ولكن كان هدفهم أن توضع فلسطين بشكل ما تحت حماية دولة أوربية ولتكن انجلترا . فترة من الوقت — ريثما يستعد الصهيونيون خلالها من حشد امكانياتهم الضخمة بمساعدة الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية لاخراج مشروعهم الى حيز التنفيذ .

معاهدة سايكس بيكو

وفي ذلك الوقت كانت تجري بين الدول الكبرى الثلاث انجلترا وروسيا وفرنسا مفاوضات سرية بشأن تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بينها بعد انتهاء الحرب ، وكانت تلك المفاوضات تمر بفترة تعثر واضطراب وذلك لرغبة كل من الدول الثلاث في أن تكون أرض فلسطين من نصيبها . وقد رأت انجلترا بثاقب رأيها الا تتمسك بفلسطين حتى لا تثير عناد فرنسا وروسيا . وفي نفس الوقت ألا تسمح لاحدى هاتين الدولتين بأن تضع يدها على فلسطين ، ولهذا فقد وجدت أن أفضل الحلول للخروج من هذا المأزق هو الاتفاق مع حليفتيها على جعل فلسطين منطقة خاضعة للنظام دولي . وبذلك يتحقق لها ابعاد كل من فرنسا وروسيا عن أرض فلسطين ، وبالتالي عن قناة السويس. وقد تم لها ذلك في معاهدة سايكس بيكو سنة ١٩١٦ .

ويمكننا القول بأن مشروع اقامة الوطن القومي اليهودي قد أثر الى حد كبير في تقسيم المستطيل العربي الممتد من العراق شرقا الى البحر الأبيض

---

(١) المصدر السابق : ص ٨٨

المتوسط غربا ، فقد حاول المهتمون بهذا المشروع من المسئولين الانجليز تحقيق أمرين جوهريين عند تحديد هذا الوطن القومى اليهودى :

الأول : أن يكون هذا الوطن صغير المساحة بحيث لا تسمح امكانياته بالدفاع عنه دون الاستعانة بمساعدة خارجية . وفى هذه الحالة سيشعر اليهود المقيمون فيه بحاجتهم الى محالفة انجلترا دفاعا عن كيانهم .

والثانى : ضمان سلامة الدولة اليهودية الجديدة وسهولة الدفاع عنها . وهذا يتطلب من بريطانيا أن تضع نصب عينيها عند تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بعد انتهاء الحرب أن تجاورها فى فلسطين دولة أوروبية صديقة .

وتتضح تلك السياسة من الحديث الذى دار بين المستر هربرت صمويل والسير ادواردجراى وزير خارجية انجلترا . فيقول المستر هربرت صمويل وأن الدولة (اليهودية) يجب أن تكون محايدة من حيث انها لا تستطيع أن تكون كبيرة بالقدر الذى يمكنها من الدفاع عن نفسها .. وقلت أيضا أنه سيكون هناك نفع عظيم اذا ضمت بقية سوريا الى فرنسا ، اذ أنه أجدى للدولة اليهودية أن تكون لها جارة أوربية من أن تكون تلك الدولة تركيا » (١).

كان تدويل فلسطين اذن هو الخطوة الأولى فى سياسة انجلترا ازاء فلسطين ستتبعها خطوات أخرى فى سبيل تحقيق سيطرتها عليها . وقد ازداد فى ذلك الوقت ضغط زعماء الصهيونيين على انجلترا من أمثال روتشلد وويزمن للاسراع فى الاتفاق على نصوص التصريح الرسمى الذى ستعلنه انجلترا بشأن فلسطين . وبعد مشاورات عديدة بين هؤلاء الزعماء من ناحية والحكومتين الانجليزية والامريكية من ناحية أخرى ، اتفقت الاطراف المعنية بالأمر على مشروع معين قدم الى وزارة الخارجية الانجليزية فى ١٨ يولية سنة ١٩١٧ وينص على مايلى (٢) :

---

(١) الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين ص ٩٢

(٢) Weizman Dr.; Trial & Error. P. 255.

"His Majesty's Government, after considering the aims of the Zionist Organization, accepts the principle of recognizing Palestine as the National Home of the Jewish people and the right of the Jewish people to build up its national life in Palestine under a protection to be established at the conclusion of Peace following upon the successful issue of the war.

His Majesty's Government regrads as essential for the realization of this principle the grant of international autonomy to the Jewish nationality in Palestine, freedom of immigration for Jews, and the establishment of a Jewish National Colonization Corporation for the resettlement and economic development of the country.

The conditions and forms of the internal autonomy and a charter for the Jewish National colonizing Corporation should, in view of His Majesty's Government, be elaborated in detail and determined with the representatives of the Zionist Organization."

« إن حكومة صاحب الجلالة ، بعد اطلاعها على أهداف المنظمة الصهيونية تقبل مبدأ الاعتراف بفلسطين وطنا قوميا للشعب اليهودى . وبحق الشعب اليهودى فى اقامة حياة قومية له فى فلسطين فى ظل حماية تنظم بعد احراز النصر وعقد لواء السلام» . .

« أن حكومة صاحب الجلالة ترى أن تحقيق هذا المبدأ يجعل من الضرورى منح استقلال ذاتى داخلى للقومية اليهودية فى فلسطين . وحرية الهجرة لليهود وانشاء شركة يهودية قومية لاستعمار الاراضى تقوم باسكان المهاجرين وبتنمية اقتصاديات البلاد » .

« ترى حكومة صاحب الجلالة أن شروط الاستقلال الداخلى واشكاله ، وبراءة الشركة اليهودية القومية لاستعمار الاراضى يجب أن تهيأ بالتفصيل ويبت فيها بالاتفاق مع ممثلى المنظمة الصهيونية » .

جاء هذا المشروع نتيجة سعى متصل من قبل اليهود الصهيونيين ، ولكن الحكومة الانجليزية كانت حريصة على أن يحوز هذا المشروع موافقة عامة من قبل جميع الطوائف اليهودية صهيونية كانت أو غير صهيونية ، ومن ثم

فقد عرضت الحكومة هذا المشروع على اليهود غير الصهيونيين لمعرفة رأيهم فيه . ولكنهم رفضوه وحملوا عليه ، لأنهم لم يكونوا على اتفاق فيما بينهم وبين اليهود الصهيونيين على وجود قومية يهودية تربط جميع اليهود فى مختلف دول العالم رغم اختلاف جنسياتهم، فهم لا يعترفون باليهودية كجنس، ولكنهم يؤمنون بها كدين ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فقد خشى هؤلاء اليهود أن يتعرض وضعهم الحالى فى الدول التى يعيشون فيها لبعض التغيرات نتيجة انشاء هذا الوطن القومى اليهودى . وايجاد جنسية يهودية ، قد يشجع بعض الدول الراغبة فى التخلص من اليهود على طردهم والزج بهم فى هذا الوطن الجديد .

وأمام رفض اليهود غير الصهيونيين لنص هذا المشروع رأت الحكومة الانجليزية ادخال بعض التعديلات عليه ليتلاءم مع رغبات الطوائف اليهودية المعارضة وذلك فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩١٧ وهذا نصه : (١)

1. "His Majesty's Government accepts the principle that Palestine should be reconstituted as the national Home of the Jewish people.

2. His Majesty's Government will use its best endeavours to secure the achievement of this object and will discuss the necessary methods and means with the Zionist Organization."

١ — « تقبل حكومة صاحب الجلالة مبدأ اعادة تحويل فلسطين الى وطن قومى للشعب اليهودى » .

٢ — أن حكومة صاحب الجلالة ستبذل أطيب مساعيها لتحقيق هذه الغاية وستتفاوض مع المنظمة الصهيونية فى تحديد الطرق والوسائل الضرورية لبلوغها » .

وقد حاز هذا التعديل الجديد موافقة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وعلى رأسها الرئيس ولسون ، ولكنه فى نفس الوقت لم يحز قبولا لدى اليهود غير الصهيونيين وأثاروا اعتراضين جوهريين حول هذا التعديل :

---

(١) نجيب صدقة : قضية فلسطين ص ٢٨

الأول : هو عدم موافقتهم على جعل فلسطين بأكملها وطنا قوميا لليهود ورأوا الاكتفاء بانشاء موطن لليهود فى فلسطين.

الثانى : أنهم خشوا على مراكزهم فى الدول الأوربية التى يقيمون فيها فأرادوا ايجاد نص صريح يضمن للطوائف اليهودية بمختلف الدول حقوقهم وحرياتهم التى يتمتعون بها .

ولذا رأت الحكومة الانجليزية أن تعالج الأمر بشىء من التؤدة وأن تجد نصا لهذا المشروع يتفق مع رغبات كلا الفريقين اليهوديين . وبعد مشاورات بينها وبين حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ، توصلت الحكومتان الى نص نهائى للتصريح واقق عليه الرئيس ولسون فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٧ قبل اعلانه.

وفى ٢ نوفمبر من نفس السنة بعثت الحكومة الانجليزية على أثر (١) احتلال قواتها لميناء غزة بالنص الرسمى لهذا التصريح الى اللورد روتشلد وهذا نصه :

"His Majesty's Government view with favour the establishment in Palestine of a National Home for the Jewish people; and will use their best endeavours to facilitate the achievement of this object it being clearly understood that nothing shall be done which may prejudice the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine, or the rights and political status enjoyed by Jews in any other country."

« أن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية

---

(١) Norman Bentwich; PalesineP. 78.

(١) الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين – المجموعة الأولى ١٩١٥ – ١٩٤٦ نشر جامعة الدول العربية .

التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين ، ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى » (١) .

وقد اشتهر هذا التصريح باسم وعد بلفور Balfour Declaration نسبة الى وزير خارجية انجلترا المستر بلفور .

نقد وعد بلفور

اذا ما نظرنا الى هذا الوعد والى الظروف الدولية التى أحاطت باصداره نجد أنه أولا يعد نقضا صريحا للاتفاق العربى الانجليزى الذى عرف باسم اتفاقية (الحسين – مكماهون) فى سنة ١٩١٥ . فهذا الاتفاق قد نص صراحة على أن فلسطين جزء من الدولة العربية المبينة بالاتفاق ، وأن انجلترا اذا كانت قد أثارت بعض التحفظات بشأن دخول ولايتى البصرة وبغداد فى نطاق الدولة العربية المقترحة لوجود مصالح حيوية بتلك الجهات . وكذلك أثارت نفس الاعتراضات بخصوص ولايات دمشق وحمص وحماه وحلب لوجود مصالح لحليفتها فرنسا فيها . فانها لم تثر أى تحفظات بشأن فلسطين(٢) . ولو أن المستر تشرشل فى بيانه الذى أعلنه فى عام ١٩٢٢ قد حاول ادخال منطقة فلسطين أيضا ضمن المناطق المستثناه فيقول « وهذا التحفظ يستثنى فى جملة ما يستثنيه من المناطق ، ذلك القسم من سورية الواقع غربى ولاية الشام . وقد اعتبرت حكومة جلالته على الدوام بأن هذا التحفظ يشمل ولاية بيروت وسنجق القدس المستقل . وبناء عليه تكون فلسطين برمتها غربى الأردن ، مستثناه من تعهد السير هنرى مكماهون . » فاصرار انجلترا على التمسك بهذا الوعد يعد نقضا صريحا لالتزام دولى سبق أن قطعته انجلترا على نفسها للعرب.

---

(١) Certified True Copy
British Embassy, Cairo.

Assistant Oriental Secrtry 19-6-37.

Arabic Version of letter forme Sir Arthur Mc Mahon to King Hussain dated 26-10-15 (Dispatch No. 172 of 14-12-15).

نقلا عن مجموعة الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين وثيقة رقم ٤ ص ١٤

(٢) نجيب صدقة : قضية فلسطين ص ٤٢

وكان على انجلترا أن تختار بين أحد الالتزامين ، إما الوفاء بتعهداتها للعرب وتجاهل وعدها لليهود وإما أن تختار العكس، لأنها لن تستطيع أن توفق بين النقيضين . وهذا سيتوقف بطبيعة الحال على مدى صلابة كل من الطرفين العربى واليهودى ، ومقدار تمسكه بما حصل عليه من حقوق وامتيازات .

واذا نظرنا الى الموقف الدولى عقب انتهاء الحرب وفى أثناء عقد مؤتمر الصلح فى فرساى نجد أن الجانب اليهودى قد عبأ كل قواه وحشد كل امكانياته للتأثير على الدول الكبرى وحضها على حل مشكلة فلسطين بما يتفق ومصالحه فى ضوء وعد بلفور . وكانت تعاونهم فى ذلك الوقت خبرتهم بالتيارات السياسية واتصالهم برؤساء ووزراء الدول الأوربية الكبرى ، بينما نجد أن الوفد العربى الذى ذهب لمؤتمر الصلح فى فرساى برئاسة الأمير فيصل للدفاع عن مصالح العرب لم تكن له دراية بالموقف الدولى أو بالتيارات السياسية . كما قوبل بمعارضة شديدة من قبل فرنسا على وجه الخصوص. فكان موقفه لذلك ضعيفا ، واعتمد كل الاعتماد على تأييد انجلترا وعلى مشورتها ، فلم يكن من السهل عليه رغم عدالة قضيته — أن يصل الى نتائج ايجابية ، وقبل فى نهاية الأمر ما عرضته عليه انجلترا . فضعف مركز الوفد العربى اذا ما قورن بمركز الوفد الصهيونى فى مؤتمر الصلح كان له أكبر الأثر ، فى أن تنحاز انجلترا الى جانب اليهود على حساب مصلحة العرب .

(ثانيا) إن انجلترا قد تسرعت فى منح هذا الوعد لليهود قبل أن تحتل فلسطين وقبل أن تفوضها عصبة الأمم فى حكم تلك البلاد . فموقفها هذا لا يجيز لها ان تغير من الوضع الراهن بفلسطين .

(ثالثاً) كان من الممكن أن يؤدى نظام الانتداب فائدة محققة اذا ما طبق دون ميل أو تحيز ، فاذا نظرنا الى المادة الثانية والعشرين من الميثاق الخاص بهذا النظام نجدها تنص على « أنه فى حالة الشعوب الراقية التى كانت تحت حكم الأتراك والتى وصل رقيها درجة تدعو الى الاعتراف مؤقتا باستقلالها تقتصر مسئولية الدولة المنتدبة على تقديم المشورة والمساعدة ، حتى تستطيع تلك الشعوب النهوض بنفسها والوقوف على قدميها » . كذلك

نصت الفقرة الثالثة من نفس المادة على الاعتراف « لحق الجماعات التي كانت تابعة للامبراطورية العثمانية بكيانها كأمم مستقلة تحتاج أن تمد بالمعونة والمشورة الادارية من قبل دولة متمدنة ويكون لرغائب هذه الجماعات الاعتبار الأول فى اختيار الدولة المنتدبة » (١) .

ولكن عصبة الأمم قد استثنت فلسطين من ذلك ، فنصت المادة الثانية من صك الانتداب على أن « تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن وضع البلاد فى أحوال سياسية وادارية واقتصادية تضمن انشاء الوطن القومى اليهودى » (٢) أى أن انجلترا لم تصبح وحدها مسئولة عن تنفيذ الوعد ، بل لقد اسهمت العصبة أيضاً فى هذه المسئولية .

(رابعاً) : إن اصدار هذا الوعد ثم العمل على تنفيذه يتنافى مع ماتادت به انجلترا وحليفاتها خلال الحرب العالمية الأولى من حق تقرير المصير . وعندما حاولت الولايات المتحدة تطبيق مبدأ حق تقرير المصير فى فلسطين وافقت كل من فرنسا وانجلترا على ذلك مجاملة لأمريكا ، ولكنهما رفضتا تعيين اعضائهما فى اللجنة التى سيوكل اليها هذا الأمر ، بحيث وجدت الولايات المتحدة نفسها مضطرة الى ايفاد مندوبيها وحدهم للقيام بعملية الاستفتاء واطلق عليهم اسم لجنة كنج . كرين . وقد اسفرت نتائج الاستفتاء عن معارضة السكان جعل فلسطين وطن قومى لليهود (٣) ولكن هذه النتيجة لم تعلن ، وظلت فى طى الكتمان حتى تتمكن انجلترا وشريكاتها من تحقيق المطامع الصهيونية فى هذا البلد العربى على حساب السكان الذين يمثلون أغلبية تقدر بنحو ٩٢ ٪ من عدد السكان والذين لم يحسب لرأيهم أى حساب .

(خامساً) أن اتفاقية سايكس بيكو قد نصت على اخضاع الأراضى المقدسة لنوع من الادارة الدولية يشترك فى وضعها كل من انجلترا وفرنسا

---

(١) مجموعة الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين ص ١٢٨ وما بعدها

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٠

(٣) Bentwich N., Palestine P. 91.

وروسيا وحلفاؤهم بالاضافة الى الحسين (١) بن على . فانفراد انجلترا بالحكم دون مشاركة الأطراف المنصوص عليها فى الاتفاق اعتداء آخر على المواثيق الدولية .

وفى حقيقة الأمر فقد بدأت المنظمات الصهيونية فى مختلف الحكومات الأوربية والأمريكية تتكاتف لتحقيق مطلبهم فى إقامة الوطن القومى اليهودى فى فلسطين تحت حماية انجلترا . وقد عارضت بعض الحكومات فى أوربا الأذعان لمطالب الصهيونية العالمية، فروسيا رفضت الموافقة على ذلك « مستندة الى أن تحويل فلسطين الى دولة عنصرية يهودية سوف يدنس الأراضى المقدسة » (٢) ولم تنته تلك المعارضة الا بقيام الثورة البلشفية فى روسيا وسقوط حكم آل رومانوف فى ١٢ مارس سنة ١٩١٧ .

ويذكر المؤرخ الكبير توينبى فى كتابه سالف الذكر بأن زوال القيصرية قد أفقد العرب الفلسطينيين حماية روسيا (٣) .

كذلك عارضت كل من فرنسا وايطاليا فى انفراد انجلترا بالانتداب على فلسطين . ففرنسا كانت تعلم بنوايا انجلترا وتخشى أن يؤدى انفرادها ببسط سيادتها ونفوذها على فلسطين الى الاخلال بتوازن القوى بينها وبين انجلترا فى منطقة الشرق الأدنى وشرق البحر الأبيض المتوسط . كما عارضت الحكومة الايطالية فى تطبيق أى نظام آخر غير النظام الدولى متأثرة بمعارضة البابوية هذا الانتداب خشية أن يؤدى الى المساس بسلامة الأراضى المقدسة بفلسطين .

وقد نجح زعماء الصهيونية فى اقناع الدولتين بالعدول عن موقفهما لتصميمهم على التمسك بانجلترا . وفى هذا يقول الدكتور حايم وايزمن « لقد قررنا أن لا يكون هناك اشتراك دولى أو تدويل فى فلسطين لما يعقب

(١) Antonius G.; The Arab Awakening, P. 260.

(٢) Toynbee A.; A Study of history. Vol VIII. P. 302.

(٣) المصدر السابق ص ٣٠٢

ذلك من تعقيدات ومنافسات وعدم كفاية .. وربما أحدث ذلك توقفا تاما فى عملنا ، وأن ما يطلبه الصهيونيون هو حماية بريطانية مع حقوق كاملة »(١).

وفى موضع آخر يستطرد قائلا « ولا حاجة الى بحث الحقيقة الواقعة وهى أن الديمقراطية الوطنية اليهودية والمنظمة الصهيونية التى تمثل فى جوهرها هذه الديمقراطية تثق دون ريب فى الحكم البريطانى وترى فى الحماية البريطانية الامكانية الوحيدة للتقدم المطرد نحو جعل فلسطين اليهودية حكومة ديمقراطية»(٢).

ونتيجة لتلك المساعى المنظمة من قبل المنظمات الصهيونية العالمية لدى الدول الأعضاء فى عصبة الأمم ، أن نجح هؤلاء الصهيونيون فى حمل عصبة الأمم على منح انجلترا صك الانتداب على فلسطين فى ٢٤ يولية سنة ١٩٢٢ . وبهذا تمكن كل من الطرفين الانجليزى والصهيونى الوصول الى تحقيق هدفه فى ظل نظام الانتداب .

تحليل الوعد

اذا ما تناولنا هذا التصريح المقتضب بالبحث والتحليل ، نجد أنه يشتمل على عبارات مطاطة وضعت بعد دراسة مستفيضة اشترك فيها أساطين السياسة فى كل من انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، مما يدل دلالة واضحة على أساليب السياسة الانجليزية الملتوية ، وعلى براعة ومقدرة وزارة الخارجية الانجليزية فى اختيار الألفاظ المرنة التى تحمل أكثر من معنى والتى يمكن تفسيرها على وجوه متعددة .

فاذا ما أمعنا النظر الى عبارة وطن قومى National Home وأردنا أن نحدد مدلولها لتعذر علينا ذلك ، فهل يقصد بها وطن سياسى بالمعنى المعروف فى العصر الحديث ، أم تعنى شيئاً آخر غير ذلك ، واذا كانت تقصد معنى آخر فما هو الدافع وراء اختيار هذه العبارة دون غيرها ..؟

(١) Weizman Dr.; Trial & Error. P. 230.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٣ وما بعدها .

لا يمكننا فى حقيقة الأمر أن نفسر هذه العبارة التى لم تعرف فى قاموس السياسة الدولية قبل الحرب العالمية الأولى الا اذا استعرضنا أقوال (١) الساسة المسئولين فى الحكومة الانجليزية الذين اشتركوا فى صياغة هذا التصريح . فاللورد بلفور الذى اقترن اسمه بهذا الوعد قد فسره فى سنة ١٩١٧ بأن الوطن القومى معناه « شكلا ما من حماية انجليزية أو أمريكية يعطى فى ظلها لليهود كل مامن شأنه أن يسهل لهم تأسيس مركز صحيح للثقافة القومية وموطن للحياة القومية » .

ولكن زميليه لويد جورج واللورد كرزون كانا أكثر صراحة فى تفسيرهما لمعنى الوطن القومى. فقال الأول « إن الفكرة التى أستوحيناها والتفسير الذى اتفقنا عليه هو أن لا تقضى معاهدات الصلح بخلق دولة يهودية فى الحال فى فلسطين دون أن يؤخذ رأى أغلبية سكان هذه البلاد. غير أننا رأينا أن نفسح المجال لجعل فلسطين دولة يهودية فى المستقبل ، اذا عرف اليهود كيف يستفيدون من التسهيلات التى أعطيناها اياهم ، وحازوا على أغلبية عددية فى فلسطين عندما يحين الوقت لمنح فلسطين أنظمة سياسية تمثيلية ».

وفى هذا المعنى يقول هربرت صمويل « قد توجد الدولة (اليهودية) فى المستقبل ومع مجريات الأحداث، ولكن طالما كانت الأغلبية العظمى من السكان من العرب فانشاء الدولة خارج عن الموضوع . وأن فى فرض حكومة من الأقلية اليهودية نقضا صريحا لأحد الأهداف الرئيسية التى أعلن الحلفاء أنهم يحاربون من أجلها » (٢) .

وفى حقيقة الأمر فان عبارة (وطن قومى) قد قصد بها منذ أول الأمر (دولة سياسية) ولكن انجلترا اختارت العبارة الأولى للتعمية ولتهدئة شكوك العرب (٣) .

---

(١) نجيب صدقة : قضية فلسطين ص ٣٢ و ٣٤

(٢) Samuel H.; Memoir P. 89.

(٣) Atujah E.; The Arabs P. 102.

وقال اللورد كرزون فى تفسيره لهذه العبارة أن الوطن القومى معناه وكيان سياسى يؤلفه اليهود ، ويدير شئونه اليهود ويحكم وفقاً لمصالح اليهود ».

من التفسيرات السابقة لهؤلاء الساسة يمكننا القول بأن الوطن القومى معناه مرحلة انتقال يعيش اليهود فى ظلها تحت الانتداب الانجليزى ريثما تصبح لهم الأغلبية العددية وفى ذلك الوقت يمكن المناداة بالدولة اليهودية الحديدة ككيان سياسى استناداً على الكثرة العددية لليهود . أما عند اصدار الوعد فلم يكن عدد اليهود فى فلسطين يزيدعن ٨٪ من عدد السكان ، فكيف تجرؤ انجلترا وحليفاتها على المناداة بفلسطين دولة سياسية يهودية فى ذلك الوقت . فعبارة وطن قومى تحمل فى أذهان ساسة انجلترا وزعماء الصهيونيين معنى واحد هو الوطن السياسى . فالوطن القومى فى هذه الحالة ليس هدفاً فى حد ذاته وانما وسيلة لغاية أخرى ستتحقق بعد حين .

أما عن تعبير الشعب اليهودى Jewish people فهو تعبير غامض لجأت اليه الحكومة الانجليزية لتتخلص من الخلاف الذى وقع بين اليهود الصهيونيين وغير الصهيونيين بشأن كلمة أمة Nation ، فالصهيونيون كانوا ينادون بأن يهود العالم على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم يكونون أمة واحدة بل عنصراً واحداً race، بينما كان اليهود غير الصهيونيين لا يعترفون بوجود روابط قومية بين المجتمعات اليهودية المنتشرة فى جميع انحاء العالم ، بل ينظرون اليها على انها روابط دينية بحتة . ولما لم يصل الطرفان الى اتفاق فيما بينهما اتخذت الحكومة الانجليزية ، موقفا وسطاً بين الفريقين ، فاستخدمت كلمة غامضة يصعب تعريفها تعريفاً قانونياً الا وهى كلمة شعب .

واذا انتقلنا الى كلمة تسهيل facilitate التى وردت بالنص نجد أن المسئولين الانجليز لم يحاولوا التورط فى هذا الوعد ، وأن يذكروا مثلا كلمة تأسيس بدلا من كلمة تسهيل .بل أرادوا أن يلقوا بمسئولية اقامة الوطن القومى على عاتق اليهود أنفسهم دون أن يتعهدوا بأقامته ، حتى اذا ماتعذر عليهم تحقيق هذا الهدف فى يوم من الأيام أصبحت الحكومة الانجليزية

فى حل من أمرها وليس لليهود عليها سلطان . أى أن انجلترا لا تضمن نجاح تحويل الوطن القومى الى دولة بالمعنى السياسى المفهوم . فهذه المهمة متروكة لنشاط اليهود وللظروف الخارجية ، فاذا استطاع اليهود أن يصبحوا أكثرية فى فلسطين ، أصبح لهم الحق فى المناداة بدولتهم طبقاً للمبادىء الديمقراطية ، وان لم يستطيعوا ذلك بقى الوطن القومى وطناً قومياً فحسب .

كما أن الحكومة الانجليزية لن تعارض فى أن يصبح اليهود أكثرية فى فلسطين ولكنها لا تتعهد بجعلهم أكثرية . فهى توافق على انشاء وطن قومى لليهود بفلسطين وتساعد على انشائه ولكنها لا تتعهد بجعل فلسطين بأكملها وطناً قومياً لهم .

ورغم هذه التسهيلات التى تعهدت انجلترا بتقديمها لليهود فان الوعد كان يتضمن تحفظات تتعلق بحقوق السكان العرب . ومع انها تحفظات مبهمة وغامضة ، الا أنها كانت على جانب كبير من الاهمية بالنسبة للسكان العرب اذا ما استطاعت الدول العربية التمسك بها ، ومطالبة انجلترا بمراعاتها ، بصفتها الدولة المنتدبة على فلسطين من قبل عصبة الأمم . ولكننا سنجد أن ظروف الدول العربية فى ذلك الوقت لم تكن تسمح لها بمنح مشكلة فلسطين ما تستحقه من عناية واهتمام ، نظراً لوقوع معظمها فى براثن الاستعمار الأوربى . فمصر قد فرضت عليها الحماية فى سنة ١٩١٤ وظلت على هذا الوضع حتى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ . وحتى هذا الاستقلال الذى منحته البلاد فى ظل هذا التصريح كان استقلالا صورياً بينما احتفظت انجلترا لنفسها بادارة شئون مصر والسودان طبقا لأهوائها ، ووفق مصلحتها .

أما سوريا ولبنان فقد خضعا للاحتلال الفرنسى الغاشم واخذا يقاومانه بكل ما أوتيا من قوة وجهد ، وكذلك الشأن بالنسبة للعراق الذى خضع للاحتلال الانجليزى .

أما عن شمال افريقيا فقد خضعت ليبيا لاحتلال ايطاليا ، كما خضعت الجزائر وتونس للاحتلال الفرنسي من قبل . فمعظم الدول العربية كانت مشغولة بمقاومة الاستعمار داخل أراضيها ، وبحل مشكلاتها الداخلية ولم تجد لديها متسعاً من الوقت للاهتمام بقضية فلسطين . حتى اذا ما بدأت هذه الدول تتخلص جزئياً من مشاكلها الداخلية وتبدى اهتماماً بقضية فلسطين ، وذلك فى الثلاثينات من هذا القرن ، نجد أن اقدام اليهود كانت قد توطدت فى فلسطين وتدعمت مصالحهم الاقتصادية بها بشكل أصبح يمثل خطراً حقيقياً على المصالح العربية بفلسطين ، فلم تستطع أن تغير من الوضع شيئاً يستحق الذكر .

واذا ما تأملنا عبارة الطوائف غير اليهودية Non Jswish communities التى وردت بنص الوعد نجد أنها تشتمل على مغالطة كبيرة للحقائق الملموسة ، فالعبارة توهم القارىء بأن فلسطين بلد يهودى ، وأن الطوائف غير اليهودية أقلية فيه ، وهذا عكس الواقع اذ كانت نسبة السكان العرب كما سبق أن ذكرنا حوالى ٩٢٪ من عدد السكان الكلى .

أما العبارة الواردة بالنص عن ضمان انجلترا لحقوق العرب المدنية والدينية The civil and religious rights فمبهمة لا تدل دلالة واضحة على مضمونها الدقيق . وقد تعمدت الحكومة الانجليزية وضع هذه العبارة الغامضة ارضاء للعناصر الصهيونية من ناحية ، ولعدم اثارة الشعوب العربية من ناحية أخرى . وفتحت الباب أمامها فى المستقبل لتفسير تلك العبارة بما يتفق مع مصلحتها .

واذا حاولنا تفسيرها فى حدودها الضيقة نرى أنها تنصب على الحريات العامة والتصرفات الشخصية فحسب ، بينما لا تتسع لتشمل الحقوق السياسية كذلك وكان يمكن لانجلترا أن تجعل هذه العبارة أكثر وضوحاً لو أرادت ذلك ، ولو كانت نواياها فوق مستوى الشبهات . فكان فى مقدورها أن تضع عبارة الحقوق السياسية بدلا من الحقوق المدنية والدينية ، ولكنها كانت

تعلم أن هذه العبارة أكثر دقة وتحديد للمعنى من سابقتها ، وأن وضعها على هذا النحو سيحول بين الصهيونيين وتحقيق مطامعهم مستقبلا فى جعل فلسطين دولة يهودية سياسية ، لان هذا سيتعارض بطبيعة الحال مع ضمان انجلترا لحقوق العرب السياسية .

واذا كانت انجلترا قد اغفلت تلك العبارة عن عمد فيما يتعلق بحقوق العرب ، فانها لم تتناساها بالنسبة لحقوق اليهود المقيمين فى الدول الأخرى خارج حدود فلسطين ، بل حددتها تحديداً دقيقاً لا لبس فيه ولا ابهام . فقد نصت فى العبارة الخاصة باليهود بضمان حقوقهم والوضع السياسى the rights and political status الذى يتمتعون به .

وقد صور لنا المؤرخ الكبير توينبي سياسة انجلترا ازاء فلسطين أصدق تصوير حينما قال « إن الدولة الغربية التى تتحمل نصيب الأسد فى المسئولية عن الخيبة فى فترة ما بين الحربين لانقاذ الموقف فى فلسطين هى بريطانيا التى كانت أولا الدولة المحتلة ، وبعد ذلك الدولة المنتدبة ، وقد أدارت شئون الانتداب من سنة ١٩١٨ — ١٩٤٨ .

«وفى خلال هذه السنين الحرجة كان موقف الحكومة البريطانية الشامل لجميع الاحزاب والذى طبقته جميع الحكومات المتتابعة ، هو التعامى المقصود الجدير بالادانة .(١) »

ويمكننا القول بأنه رغم ما بذله الصهيونيون من مساع للحصول على هذا الوعد ، فانهم لم يكونوا يستطيعون الوصول اليه لولا مصلحة انجلترا فى حماية مركزها بمصر ، وتأمين اتصالها البرى مع الشرق . فهذا الدافع الرئيسى وحده كان كافياً لحمل انجلترا على اصدار هذا الوعد الذى سيمكنها من فلسطين مهما كان الدور الذى أدته العوامل الأخرى من سياسية واقتصادية ودينية .

---

(١) Toynbee A.; A study of history. VIII P. 304.

مراجع البحث

المراجع العربية :

- جامعة الدول العربية : الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين . المجموعة الأولى ١٩١٥-١٩٤٦
- جامعة الدول العربية : مقال خطير بقلم البروفيسور آرنولد توينبى .
- دكتور أحمد عبد القادر الجمال : من مشكلات الشرق الأوسط ، القاهرة ١٩٥٤
- دكتور مصطفى صفوت : انجلترا وقناة السويس ، اسكندرية - ١٩٥٦

المراجع الأوربية :

- Atiyah E.; The Arabs. 1955.

  Antonius G., The Arab Awakening. London 1938.
- Bentwich N.; Palestine. London 1934.
- Hoskins H.L.; The Middle East. New York 1954.
- Samuel H.; Memoirs.
- Weitzman Dr.; Trial & Error.

تم ، بحمد الله ، طبع هذه المجلة
بمطبعة جامعة الاسكندرية ، في يوم الأحد
٢١ من ربيع الأول سنة ١٣٨٣ الموافق
١١ من أغسطس سنة ١٩٦٣

شعبان السيد عبد السلام
مدير المطبعة الادارى

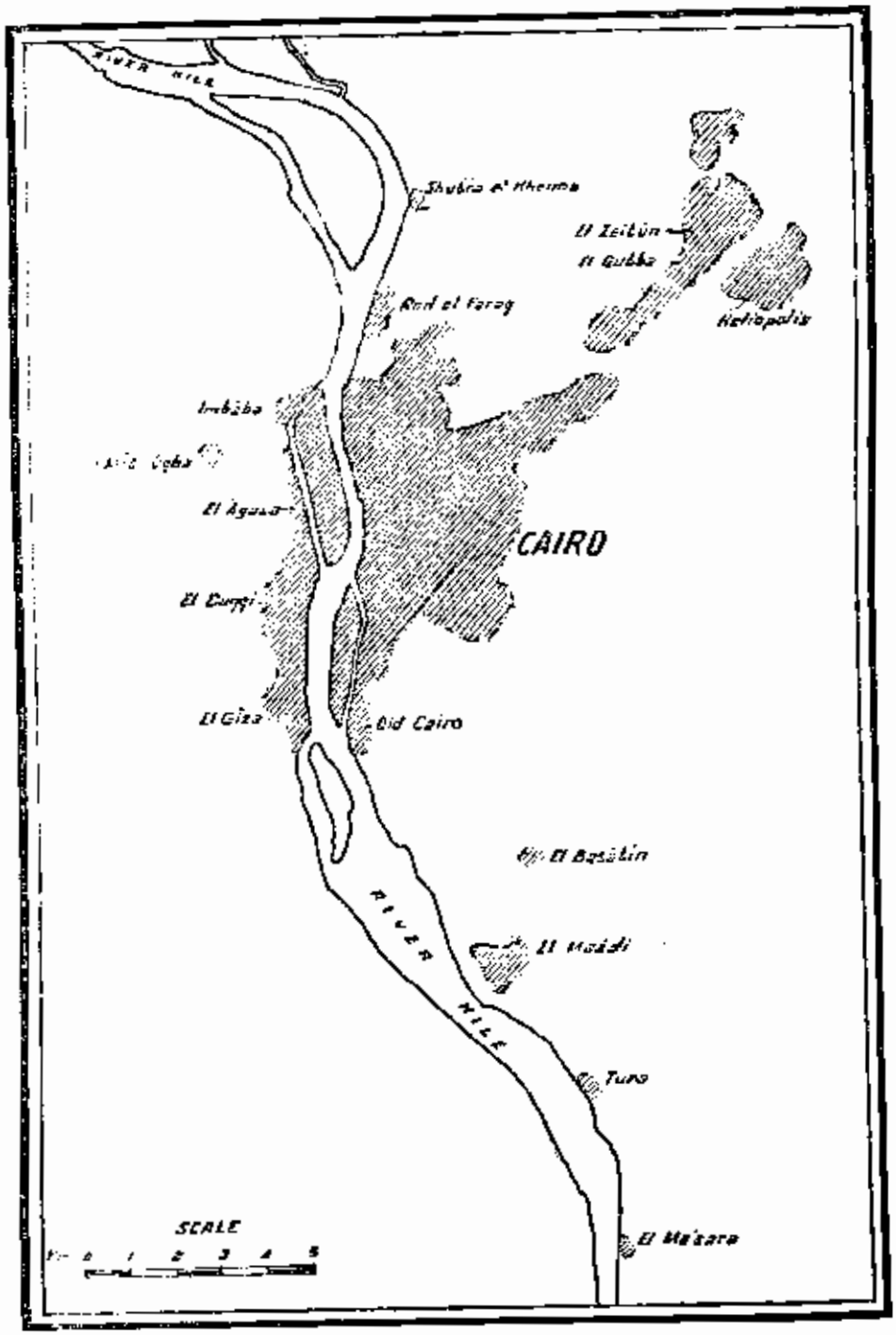
RIVER NILE
Shubra el Kheima
El Zeitûn
El Gubba
Heliopolis
Rod el Farag
Imbâba
Abdîn Qeba
El Agouza
CAIRO
El Gîza
Old Cairo
El Basâtîn
El Maâdi
RIVER NILE
Turo
El Ma'asara
SCALE
0 1 2 3 4 5